شبهات وردود

أصول الملاحدة والرد عليها

عبيد الله الباقي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

إن الله تعالى قد أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم بأنه ربهم ومالكهم؛ قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]؛ فالواجب عليهم أن يعرفوا ربهم وخالقهم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وأن يخلصوا العبادة لله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، ولكن كثيرًا من الناس أنكروا ربوبيته، وأعرضوا عن عبادته عزَّ وجلَّ، بل ظهر كثيرٌ من النظريات المختلفة الفلسفية التي تدعو إلى محاربةِ الدين وإنكارِ وجودِ الخالق سبحانه وتعالى، حتى صار الإلحاد(١) مذهبًا عند

(١)أصل الإلحاد: هو الميل والعدول عن الشيء، ينظر: لسان العرب (٣/ ٣٨٩)، وهو مصطلح عام يستعمل لوصف كل تيار فكري وفلسفي يتمركز حول فكرة إنكار وجود الخالق، ينظر: الإلحاد الحديث (ص: ٣٤)، والمعجم الفلسفي (ص:٢٠)، وأوهام الملحدين (ص: ١٧)؛ فالإلحاد هو مذهب فلسفي يقوم على فكرة عدمية أساسها: إنكار وجود الخالق، ينظر: الإلحاد، وسائله، وخطره، وسبل مواجهته (ص: ١٢)، وأوهام الملحدين (ص: ١٧)، وخرافة الإلحاد (ص: ٩).

كثير من الناس غربًا وشرقًا فيما بعد، ومن خلال التتبع وجد أن ما يقيم عليه الملاحدة منهجهم يرجع إلى أصلين(١):

الأصل الأول: النظريات العلمية التجريبية، ومن أهمها:

النظرية الأولى: نظرية داروينية:

وهي القول بأن جميع الكائنات الحية ترجع إلى أصل واحد، وهو الخلية البسيطة، ثم أخذت تتطور وترتقي من طور إلى طور حتى نشأ الإنسان وبقية الكائنات(٢).

الرد على هذه النظرية:

أ- أن صاحب النظرية نفسه متردد في نظريته، وكلامه متناقض في التطور(٣).

ب- أن أرباب هذه النظرية عاجزون عن بيان كيفية انتقال الحياة من جماد إلى كائنات حية؛ كيف وجدت الحياة فجأة من خلية جامدة إلى أنفس حية لها إحساس وعقل؟!(٤).

ج- أن بني آدم وجميع الحيوانات والطيور وجميع ما في البراري والبحار من آلاف السنين وهي على ما عليه لم تغير أشكالها ولا أسماؤها، فهل من أحد منهم شاهد أي ارتقاء من أي نوع من مخلوقات الله؟!

د- أن مما تزعمه هذه النظرية: أن وجود الأمراض المشتركة بين الإنسان والحيوان يدل على وجود تشابه بينهما؛ فلماذا لا يكون الإنسان متطورًا من فأر وليس من قرد؛ لأنهما يشتركان في كثير من الأمراض؟!(٥).

هـ- أن هذه النظرية نظرية قاصرة؛ فهي

(١) ينظر: الإلحاد، وسائله، وخطره، وسبل مواجهته (ص: ٢٧).

(٢) ينظر: الإلحاد، وسائله، وخطره، وسبل مواجهته (ص: ٣١ - ٣٢)، والإلحاد، وآثاره في الحياة الأوربية الحديثة (ص: ١٦٦).

(٣) كما قال دارون مرة: "إني أرى الحياة التي عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية نفخ فيها نفخة الحياة"، وقال مرة أخرى: "الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق"، ثم قال أيضًا: "إنه لا يعتقد أن نظريته تنفي وجود إله"؛ فهذه كلها تدل على أنه لم يجزم بوجود إله أو بعدم وجوده.

ينظر: الإلحاد، وآثاره في الحياة الأوربية الحديثة (ص: ١٧٥ - ١٧٦).

(٤) ينظر: الإلحاد، وسائله، وخطره، وسبل مواجهته (ص: ٣٠ - ٣١).

(٥) المصدر السابق (ص: ٣١).

لم تفسر جميع ظواهر الحياة في هذا الكون، إذ هي -مثلًا- لا تقدم تفسيرًا لأصل نشأة الحشرات والطيور مع أنها تمثل (٨٠٪ - ٩٠٪) من مجموع الحيوانات!(١).

و- أن المجلس التعليمي في ولاية كاليفورنيا الأمريكية قد قرر بأن هذه النظرية نظرية افتراضية وليست حقيقة(٢).

الحاصل أن أقوالهم ونظرياتهم غالبًا مبينة على الظن والتخمين، فليست مبينة على قواعد وحقائق يقينية أبدًا ترتاح لها النفوس، وتطمئن لها القلوب.

النظرية الثانية: نظرية الانفجار العظيم:

وهي القول بأن أصل الخلق كان كُرَيّة بسيطة ذات خلية واحدة، وهي صغيرة كرأس الدبوس، كانت تسبح في اللازمان واللامكان، ثم انفجرت قبل (١٥) مليار سنة! فنتج عن هذا الانفجار تكون هذا الكون بالتدريج، فأصل هذا الكون كله إذن: رأس الدبوس هذا(٣).

الرد على هذه النظرية:

أ- أن توجه هذه الأسئلة الإلزامية إلى أصحاب هذه النظرية:

من أين جاءت نفطة الدبوس هذه؟، ولماذا كانت هذه الكرية ساكنة ثم قررت فجأة أن تنفجر؟، وما ميزة هذه اللحظة التي انفجرت فيها -بالذات- عن غيرها؟، وكيف ينتج انفجار نظامًا بديعًا؟ وهل الانفجار يناسب النظام؟، وكيف أنتجت نقطة من مادة جامدة حياة عقلًا ومشاعر؟!

وقد يجيب الملحد بأنه حصلت تفاعلات أنتجت خلايا اجتمعت فتكونت بعد الانفجار بها النظام البديع في كل شيء.

ولكن يسأل: كيف حصل هذا

(١) المصدر السابق (ص:٣٠).
(٢) ينظر: الإلحاد، وآثاره في الحياة الأوربية الحديثة (ص: ١٧٥).
(٣) ينظر: الإلحاد، وسائله، وخطره، وسبل مواجهته (ص: ٣٣ - ٣٤).

الاجتماع للخلايا؟، وكيف وجدت الحياة من الجماد؟!

وقد يجيب الملحد: حدث هذا تلقائيًا وصدفة!

فالنتيجة: أن الصدفة عند الملاحدة هي رب العالمين المكون لهذا الكون! وبهذه الصدفة وجدت السماء والأرض، ووجدت الأنهار والبحار والأشجار، والأسماك والطيور... بل كل شيء وجد عندهم بالصدفة!(١).

ب- أن يقال: إن مجموعة قرود لوضعت في غرفة -مثلًا-، ووضعت أمامهم آلات كاتبة وأوراق ليعبثوا بها، ثم ينظر بعد برهة من الزمن؛ فهل من الممكن أن توجد أمام كل آلة من هذه الآلات قصيدة غزلية رائقة تنافس قصائد كبار الشعراء؟! لن يمكن هذا أبدا(٢).

ج- أن العقلاء جميعًا متفقون أن الصدفة لا تنتج نظامًا، ولا يمكن أن تكرر نظامًا واحدًا، ولا يمكن أن تبرز فيها -دائمًا- آثار القصد(٣).

د- أن كل ما في هذا الكون يحكي أن أنه إيجاد موجد حكيم عليم خبير، وهو الله الذي أحسن كل شيء خلقه؛ فهو خالق كل شيء، وأنه رب العالمين، ولو تركت هذه العوالم العظيمة لحظة واحدة للمصادفة لزالت السموات والأرض واختبطت العوالم(٤).

الأصل الثاني: النظريات الفلسفية، ومن أهمها:

النظرية الأولى: قاعدة الشك:

قاعدة الشك أو التشكيك هي عماد الإلحاد عند الملاحدة؛ أصّلها لهم «أرسطو» كما قال الشيخ السعدي -رحمه الله-: "وهذا الأصل الذي تفرع عنه ضلالهم أنه من أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمح من قلبه جميع العلوم الاعتقادات، وليسع في إزالتها من قبله بحسب مقدوره، وليشك في

(١) المصدر السابق (ص: ٣٤ - ٣٥).

(٢) ينظر: الإلحاد، وسائله، وخطره، وسبل مواجهته (ص: ٣٥ - ٣٦).

(٣) المصدر السابق (ص: ٣٨).

(٤) ينظر: الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ص: ٣٩).

الأشياء ثم ليكتف بعقله وخياله ورأيه"(١).

الرد على هذه النظرية:

لا شك أن هذه النظرية باطلة؛ وذلك بما يلي:

أ- أن محو العلوم الصحيحة والعقائد الحقة من القلوب محال غير ممكن؛ ولهذا قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى عن كفار مكة ومشركي قريش: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، والجحد هو التغطية، والتغطية هي ستر الموجود عن الظهور(٢)، فإذا استقر الحق في القلب لا يمكن محوه وإزالته منه، وإنما إنكاره يكون من باب الجحد والمكابرة فقط، ويكون القلب مستيقنًا به غير منكر له(٣).

ب- أن الملاحدة "هم كذبة يتناقضون في هذا الإطلاق -أي: التخلص من جميع المعلومات السابقة، ومحوها من القلوب بالكلية-؛ فإنهم يذهبون إلى تقليد أرسطو وأفلاطون والفارابي وابن سينا ونحوهم من ملاحدة الأولين والآخرين"(٤)، بل "إنهم متمسكون غاية التمسك بما عليه أئمتهم الملحدون، وأقوالهم وعقائدهم مقدمة عندهم على ما جاءت به الرسل، ويتعصبون لها غاية التعصب، فلو كانوا صادقين محقين لوجب عليهم أن يمحوا من قلوبهم أقوال أئمتهم وعقائدهم التي ما زالوا متمسكين بها، ومقلدين لها تقليدًا أعمى"(٥).

ج- أن المعارف السابقة والمبادئ

---

(١) المصدر السابق (ص: ٤).
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة (٥/ ١٩١).
(٣) ينظر: الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ص: ١٠ - ١١).
(٤) تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله (ص: ٢٣).
(٥) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ص: ١١).

العليمة القديمة هي التي تؤسس عليها المعارف الحديثة، وتتفرع عنها النتاجات العقلية الجديدة؛ "فإذا رفض هولاء الملحدون القديم، وعنوا به دين الإسلام، فقد رفضوا جميع الأمور النافعة؛ فأي شيء يبقى بأيديهم يؤسسون عليه علومهم وأعمالهم؟!"(١)؛ فلا تصح دعوى التخلص من جميع المعلومات، بل لا بد من التفريق بين المفيد وغير المفيد، والحفاظ على القديم الصحيح، ليؤسس عليه الجديد المفيد.

د– أن هذه الدعوى يستلزم منها التسوية بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، وكذلك تفتح الأبواب للشكوك والشبهات والشهوات التي تضعف العلم واليقين والإيمان، وبالعكس إذا كانت القلوب مليئة بالعلوم الصحيحة والبراهين الصادقة يكون عندها من اليقين والنور ما يميز به بين الحق والباطل، وكذلك يزول به الشبهات

(١)تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله (ص: ٢٢ – ٢٣).

والشهوات وغيرها من الأمراض الواردة على القلوب(٢).

النظرية الثانية: تعظيم العقل، وحصر العلوم في المحسوسات:

يعتقد الملاحدة بأن يدرك كل شيء بالعقل، وبهذا أنكروا الوحي والرسالات السماوية(٣)، وأن الموجودات كلها محصورة في المحسوسات، وبهذا أبطلوا الأمور الغيبية(٤).

الرد على هذه النظرية:

أولًا – أن كل شيء لا يدرك بالعقل وحده؛ وذلك بما يلي:

أ – أن المعارف الصادقة والعلوم النافعة لا تدرك إلا بالوحي، وأما علوم الملاحدة فهي قليلة جدا في مقابلها؛ لأن الإنسان ما أوتي من العلم إلا

(٢) ينظر: الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ص: ١١).

(٣) ينظر: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي (١/ ٢٤٨ – ٢٤٩)، والإلحاد، وسائله، وخطره، وسبل مواجهته (ص: ٤١).

(٤) ينظر: الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ص: ٤)، والإلحاد، وسائله، وخطره، وسبل مواجهته (ص: ٤١)، وظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي (١/ ٣٠٢).

قليلًا، وهذا العلم القليل لا يكفي لهداية البشر بل جميع علوم البشر على اتساعها وتفوقها لا تفي بهدايتهم إن لم تستند إلى تعاليم الدين(١).

ب- أن الأشياء المسخرة للإنسان كثيرة جدًا؛ فمنها ما ينفع ومنها ما يضر، ولكن لا يهتدي العقل إلى تفاصيل النافع والضار إلا عن طريق الوحي والرسالات الإلهية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد"(٢)؛ لأن الله تعالى قد جعل لعلم الإنسان وعقله حدًا لا يتجاوزه ولا يمكن أن يتجاوزه...فما حصل لهم من قدرة فمن إقدار الله تعالى، وما حصل لهم من علم فهو من تعليمه عزَّ وجلَّ(٣).

ج- أن العقول البشرية ومداركها متفاوتة؛ فبالتالي تضاربت أقوال الملاحدة وتناقضت مقالاتهم، ولم يثبتوا على مقالة واحدة، ولم يزالوا في خبط واختلاط، وإحداث نظريات ونقضها، واتفاق وافتراق(٤)، ومحال أن يستقر لهم قول صحيح في ذلك حتى يؤمنوا بخالق الوجود وموجد العلل والمعلولات، والقادر على كل شيء الذي جميع الذوات والعناصر والأسباب والمسببات كلها منقادة لمشيئته وحكمته(٥).

ثانيًا: لا يعتمد على الحس فقط؛ وذلك بما يلي:

أ – أن العلوم ليست محصورةً في المحسوسات فقط؛ فإن جميع العقلاء يثبتون بأن مدارك العلوم هي: الحس، والعقل، والأخبار الصادقة(٦)، فالموجودات من حيث المعرفة والإدراك البشري على ثلاث مراتب: موجودات يكن تحصيل المعرفة بها عن طريق الحس المباشر، وموجودات

---

(١) ينظر: الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ص: ٥١ – ٥٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٠٠).
(٣) ينظر: الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ص: ٥٣ – ٥٤).
(٤) ينظر: الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ص: ٢٥).
(٥) المصدر السابق (ص: ٥٩).
(٦) المصدر السابق (ص: ٣١).

يعلم وجودها، ولكن يستدل علها بآثار الحواس الخمس، وموجودات لا يعلم وجودها إن لم ترد من جهة الخبر الصادق؛ وبناءً على هذا لا يصح حصر العلم في الحس البشري فقط(١).

ب - أن الحواس البشرية أضعف من أن تكون معيارًا للموجودات؛ لأن الأشياء قد تظهر على غير وجهها؛ فالقلم الذي يوضع في كأس من الماء يرى مكسورًا، وهو ليس مكسورًا، ويرى وقت الظهيرة ماء في الطرقات والأماكن البعيدة وهو سراب لا حقيقة له؛ فلا ينبغي الاعتماد الكلي على الحس البشري ولا العقل الإنساني، ولا يصح أن يحكما على كل شيء، ولا يمكن أن يفسر بهما كل شيء(٢).

ج – أن دعوى الملاحدة هذه غير صادقة؛ وذلك بأنهم زعموا أن علومهم تجريبية، وأن تجاربهم وخبراتهم هي التي أوصلتهم إلى بيان كيفية وجود الأرض، وتفسير خلق الإنسان وما إلى ذلك؛ فالسؤال لمن زعم ذلك: هل أنت جرَّبتَه بنفسك؟ وهل كنت حاضرًا وشاهدًا لما حدث ذلك؟(٣)، الجواب: لا.

خلاصة القول:

أن المنهج الإلحادي منهج متناقض؛ يكذب بالشيء ويصدق نظيره؛ فهم – على سبيل المثال – يكذبون بأن الله خلق آدم عليه السلام من طين ثم تناسل البشر بعده؛ لأنه -عندهم- غيب غير محسوس؛ ولكنهم يصدقون بأن أصل الإنسان خلية وجدت قبل ملايين السنين، ثم تطورت وصارت إنسانًا، مع أن هذا غيب بالنسبة لهم أيضًا، ولكنه مقبول عندهم؛ لأن مصدره إلحادي، وذاك مردود؛ لأن مصدره وحي قرآني؟!(٤).

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. ❊❊

(١) ينظر: شموع النهار (ص: ٩٢ - ٩٤).
(٢) ينظر: الإلحاد، وسائله، وخطره، وسبل مواجهته (ص: ٤٢)، وشموع النهار (ص: ١٦ - ١٧).
(٣) ينظر: الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ص: ٢٥ - ٢٦).
(٤) ينظر: الإلحاد، وسائله، وخطره، وسبل مواجهته (ص: ٤٥).